

الانتفاضة:

انفجار عملية السلام

ممدوح نوفل

عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2002. 400 صفحة.

يثير الكتاب الرابع لممدوح نوفل تساؤلاً هو في حد ذاته عنوان المرحلة: وماذا بعد

الانتفاضة..!؟

ما يفرض هذا التساؤل، ليس مجريات الأحداث فقط بل أيضاً التسلسل المتتابع لكتب القائد العسكري الفلسطيني، الذي انصرف اهتمامه الأكبر، بعد مغادرته بيروت سنة 1988، إلى متابعة التطورات السياسية للقضية الفلسطينية، وخصوصاً أنه عين عضواً في اللجنة العليا لمتابعة المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية قبيل مؤتمر مدريد سنة 1991، وشارك في هذا المؤتمر ممثلاً عن اللجنة، وبقي فيها حتى سنة 1996.

الإرث النضالي، السياسي والعسكري، إلى جانب المفكرة الشخصية التي لم تفارق جيبه يوماً، وكان يدون فيها تفصيلات التطورات السياسية التي شارك في صوغها، أو في متابعتها، كعضو في المكتب السياسي للجهة الديمقراطية، أو في "فدا"، أو كعضو في المجلس المركزي الفلسطيني، والقيادة الفلسطينية والمجلس العسكري الأعلى، واللجنة العليا لمتابعة المفاوضات، ثم مستشاراً عسكرياً للرئيس ياسر عرفات، كل هذا، بما وفره له من خفايا وأسرار وسعة أفق واطلاع، يقف وراء الكتب الأربعة التي أصدرها حتى الآن، وعرض فيها، بالتتابع، لأهم المفاصل التاريخية للقضية الفلسطينية، خلال مرحلة التحول من الكفاح المسلح إلى العمل السياسي.

كتاب ممدوح نوفل الأول، "طبخة أوسلو"، لم يتأخر صدوره كثيراً بعد توقيع الاتفاق وقيام السلطة. فقد صدر سنة 1995*، في وقت كان لا يزال التفاؤل حياً بعد في نفوس الفلسطينيين. ومع أنه كان الكتاب الأول لممدوح، الذي لم يكن تملك كثيراً بعد من أدوات الكتابة، إلا أنه أدهش معظم القراء بفضل صدق اللغة التي تحدث فيها عن الحلم الفلسطيني تلفه الكوفية الفلسطينية، وهو يخطو خطواته الأولى على طريق التحول إلى

(* عن دار "الأهلية للنشر والتوزيع" في عمّان.

حقيقة.

بعد "الطبخة"، كان لا بد من أن يقلب ممدوح نوفل أوراق مفكرته المتراكمة من جديد ليكشف للقارئ، وليوثق للتاريخ، في كتاب "الانقلاب" **، تفصيلات مفاوضات مدريد - أوصلو، ليتبعه بعد ذلك "البحث عن الدولة" الذي صدر سنة 2000***، في الوقت الذي كانت تتراكم إرهابات الانتفاضة الراهنة، التي انطلقت في 28 أيلول/سبتمبر من تلك السنة، فكان أن كرس كتابه الرابع لهذه الانتفاضة، ليعالج مقدماتها السياسية، بتفصيلات لم يسبقه إلى كشفها أحد، وبرؤية سياسية لم تحافظ على موضوعيتها فحسب، بل حافظت أيضاً على انسجامها مع ذاتها، كما مع ذات الكاتب.

يبدأ ممدوح نوفل كتابه بقسم أول يتناول فيه مقدمات الانتفاضة، بدءاً بفوز إيهود براك في انتخابات رئاسة الحكومة سنة 1999، وهو الفوز الذي أنعش في حينه عملية السلام. لكنه يرى أن العرب منحوا رئيس الحكومة الإسرائيلية الجديد وسام "صانع السلام" قبل أن يروا شيئاً من "خير"، الذي سرعان ما تكشف أنه لم يكن سوى خداع لم يعمر طويلاً. وهذا ما بدأ يتكشف حتى قبل الذهاب إلى القمة الثلاثية في كامب ديفيد (تموز/يوليو 2000)، عندما بدأ براك منذ أيامه الأولى في الحكم بالتلاعب على المسارين الفلسطيني والسوري.

ويشخص نوفل سيكولوجية براك، الذي برع في صغره في تصليح الساعات، الأمر الذي عزز ثقته بنفسه وبقدرته على التلاعب بالمسارات التفاوضية، ويضيف أنه حمل في جعبته إلى واشنطن، في أول زيارته للعاصمة الأميركية كرئيس للحكومة، اقتراحاً باستئناف المفاوضات دفعة واحدة في أربعة مسارات متوازية:

- (1) المسار اللبناني، بهدف وضع ترتيبات أمنية تمكن الجيش الإسرائيلي من الانسحاب من الجنوب خلال عام واحد، وفك ارتباطه بـ "جيش لبنان الجنوبي".
- (2) المسار السوري، حيث اعترف براك بوجود "وديعة رابين"، لكنه شدد على أنها كانت افتراضية.

(3) المسار الفلسطيني، حيث اهتم بتنفيذ قضايا المرحلة الانتقالية وبقياس اتفاق واي ريفر التي لم تنفذ في عهد سلفه نتنياهو.

- (4) المسار الرابع، وقد خصصه للبحث في قضايا الحل النهائي مع الفلسطينيين.
- ويتابع نوفل أن براك حصل في زيارة واحدة لواشنطن على ما لم يحصل عليه رئيس

(**) صدر سنة 1996. عن "دار الشروق للنشر والتوزيع".

(***) عن مؤسسة "مواطن للدراسات الديمقراطية" في رام الله، وصدرت طبعته الثانية سنة 2001 عن دار "الأهلية للنشر والتوزيع" في عمان.

حكومة إسرائيلية آخر، إذ أكد البيان المشترك الذي صدر عن محادثاته مع الرئيس بيل كلينتون "أن المصالح الإسرائيلية - الأميركية المشتركة هي حجر الأساس في إعادة ترتيب أوضاع الشرق الأوسط." وأصبحت إسرائيل شريكاً استراتيجياً للولايات المتحدة من نوع جديد. وصمم براك وكلينتون لهذه الشراكة "قيادة علياً" تجتمع دورياً كل أربعة أشهر.

والأخطر من كل هذا وذاك أن إدارة كلينتون تبنت الخلط الذي أراده براك لأوراق الملف الفلسطيني بالملف السوري واللبناني، واستجابت لرغبته في مزج قضايا المرحلة الانتقالية مع الفلسطينيين بقضايا الحل النهائي. كما تراجعت إدارة كلينتون عن القيام بدور مباشر داخل غرف المفاوضات مع الفلسطينيين كما فعلت في عهد ننتياهو، وقبلت تقليص دورها من الشريك الفعال إلى دور المراقب، "بأمل عمل الممكن من خلال القيادة العليا المشتركة."

لكن براك ترجم ذلك إلى محاولة تنظيم سباق بين المسارين الفلسطيني والسوري بهدف الحصول على أكبر قدر من التنازلات من كليهما، وعمل على دمج قضايا الحل النهائي في قضايا الحل المرحلي فلسطينياً، بحيث توظف الثانية من أجل انتزاع تنازلات جوهرية في الأولى! ومن ثم أوقف براك تنفيذ الاتفاقات المبرمة مع الجانب الفلسطيني المتصلة بقضايا الحل المرحلي الانتقالي، وأصر على عقد قمة كامب ديفيد الثانية، من دون تحضير مسبق لها. ومع أنه قُدمت في المفاوضات التي جرت في كامب ديفيد أفكار أميركية - إسرائيلية متقدمة على المواقف السابقة، إلا إنها اصطدمت بأسوار القدس وقضية اللاجئين، وتجمدت عندها. وشجع موقف كلينتون براك على حشر الفلسطينيين في الزاوية منذ الاجتماع الأول، حيث تم الاتفاق، بناء على طلب براك ودعم كلينتون، على أن تطرح جميع القضايا الكبيرة والصغيرة، السهلة والمعقدة، على طاولة المفاوضات دفعة واحدة على قاعدة "الاتفاق على كل شيء أو لا اتفاق على شيء، وأن جميع ما يطرح على طاولة المفاوضات من أفكار تصبح لاغية تماماً في حال عدم التوصل إلى أي اتفاق."

ويتناول الفصل الثاني من القسم الأول تفصيلات المقترحات التي تقدم بها الجانبان الأميركي والإسرائيلي، وتفصيلات الضغوط الشديدة التي مارسها كلينتون على عرفات، الذي تمسك بالثوابت الفلسطينية، وقال لكلينتون عندما ضغط عليه هذا للقبول بالمقترحات الإسرائيلية بشأن القدس: "إن دعوتي للموافقة على تقسيم السيادة على المسجد الأقصى تتضمن يا سيادة الرئيس دعوة للسير في جنازتي."

ويخلص الكاتب إلى أن فشل قمة كامب ديفيد أنعش المعارضة الفلسطينية والإسرائيلية سواء بسواء. وكان ذلك من أهم مقدمات "الانفجار"، الذي هو عنوان القسم

الثاني من الكتاب. ويرى نوفل أن "تنازلات" براك في كامب ديفيد هزت النظام السياسي في إسرائيل، وجعلت براك غير قادر على منع أريئيل شارون من زيارة المسجد الأقصى؛ وهي الزيارة التي فجرت الانتفاضة والصدام، "وهات من يوقفه"، على حد قول الكاتب.

ويقرر ممدوح نوفل، الذي يرفض عسكرة الانتفاضة ويعارض العمليات الاستشهادية، في الفصل الرابع من كتابه، أن الانتفاضة أعادت إلى القضية الفلسطينية عمقها العربي، إلا إنها أدت إلى ما يمكن وصفه ببدايات عودة حركة "فتح" مجدداً إلى العمل العسكري بعد توقفها عنه في إثر توقيع اتفاق أوسلو. ويضيف أن المقارنة بين البيانات التي صدرت عن حركة "فتح" خلال الانتفاضة تظهر "فتح" و"كأنها ألغت الفوارق بينها وبين حركة حماس".

ويسجل نوفل في هذا الفصل أن الضغوط التي مارسها كلينتون لوقف "العنف" واستئناف المفاوضات، وصولاً إلى عقد قمة شرم الشيخ، فشلت للأسباب ذاتها التي أدت إلى فشل قمة كامب ديفيد، ولم تنجح في وقف الانتفاضة.

وينتقل الفصل الخامس إلى خضوع إدارة كلينتون للابتزاز، ومساواتها بين القاتل والضحية، ولا سيما في فترة الانتخابات الأميركية، وبعد أن أعادت الانتفاضة الاعتبار إلى القيادة الفلسطينية.

ويواصل نوفل في الفصل السادس رصد محاولات كلينتون في أيامه الأخيرة تحقيق إنجاز يخلده في التاريخ، لكنه يسجل أن الأفكار المتقدمة التي تقدم بها كلينتون لمفاوضات طابا إنما طرحت في وقت متأخر. وبدورها، رفضت القيادة الفلسطينية هذه الأفكار من دون أن توضح موقفها للناس، على الرغم من أن الطرفين اقتربا كثيراً من الحل في طابا. وهذا ما سجله البيان المشترك الذي وقعه أحمد قريع، رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني، وشلومو بن - عامي، وزير الخارجية الإسرائيلي، بقوله: "إن الطرفين يعلنان أنهما لم يكونا في أي وقت مضى أقرب إلى التوصل إلى اتفاق"، وأنهما تعهدا "بإعادة الأمور إلى طبيعتها، والعودة إلى وضع أمني مستقر على الأرض".

ويشير نوفل هنا من طرف خفي إلى مسؤولية عرفات عن التوتر في علاقات الطرفين الذي أعقب ذلك. فهو يقول إن عرفات غادر إلى المؤتمر الاقتصادي في دافوس بعد بضع ساعات من تلقيه تقارير أعضاء الوفد الفلسطيني العائد من طابا. إذ فاجأ شمعون بيرس، الذي كان سبقه إلى الحديث بكلمة ودية تجاه الفلسطينيين، بشن هجوم شديد على براك وسياسته العنصرية ضد الشعب الفلسطيني.

كما يشير نوفل إلى أن سبب انفعال عرفات آنذاك ربما يكون عائداً إلى حرص براك على إنهاء مفاوضات طابا من دون توثيق مواقف الطرفين بصورة رسمية. ويبدى نوفل رأيه في أن "مفاوضات كامب ديفيد كانت أقل من اتفاق.. وما طرح في محادثات طابا

يوفر الحد الأدنى المطلوب لتوصل الطرفين إلى اتفاق شامل ونهائي ينهي نصف قرن من النزاع الدموي المدمر، لكنه وللأسف الشديد طرح في وقت متأخر جداً.”
وينتهي نوفل هذا الفصل بنقد الموقف الفلسطيني قائلًا: “إن ثلاث فرص جديدة ضاعت في سياق العمل لتحقيق السلام الفلسطيني – الإسرائيلي المنشود، وبالحد الأدنى تحقيق تقدم نوعي على طريق تحقيقه، الأولى عندما لم يتعامل الجانب الفلسطيني بصورة خلاقة مع فكرة الاتفاق حول جميع قضايا الحل النهائي باستثناء قضيتي القدس واللاجئين، وربط إنهاء النزاع بالاتفاق حولهما. والثانية، عندما رفض الجانب الفلسطيني اعتماد أفكار كلينتون التي طرحها قبيل مغادرته البيت الأبيض وقبل محادثات طابا، ولم يتعامل معها بصورة خلاقة أيضاً. والثالثة، عندما تردد براك في التوصل إلى اتفاق في محادثات طابا، ورفض حوصلة نتائج تلك المفاوضات المستمرة والمنتجة.”

القسم الثالث من كتاب “الانتفاضة” مخصص لـ “سقوط جنرال إسرائيلي (براك) وصعود آخر (شارون) والانتفاضة مستمرة.” وهو يتناول في أول فصول هذا القسم فوز شارون في الانتخابات باعتباره انقلاباً ضد السلام له ما بعده، موجهاً اللوم إلى الفلسطينيين لأنهم لم يحاولوا تقليص فرص شارون في الفوز على الرغم من معرفتهم بتوجهاته. ويتناول الفصل التالي (الثامن) دعم إدارة بوش لانقلاب شارون على السلام، وما أدى إليه من خلط لأزمات المنطقة، وعدم ردع القمة العربية التي عقدت في عمان لشارون، وعدم دعمها الانتفاضة بما فيه الكفاية.

ويتناول الفصل التاسع احتداد الصراع ودخوله مرحلة نوعية جديدة. ويعبر نوفل في هذا الفصل بشكل أوضح عن معارضته العمليات الاستشهادية. فهو يقرر أن عملية “الدولفنريوم” ألحقت أذى بالمصالح الوطنية الفلسطينية، لكنه لا يغفل عن دور الانحياز الأميركي إلى إسرائيل، الذي تجلى في موافقة كولن باول خلال وجوده في رام الله على فكرة إرسال مراقبين دوليين، وتراجعه عن ذلك لدى وصوله إلى تل أبيب.

أما القسم الرابع والأخير فيتناول المسائل التي يفترض أن يتمحور حولها النقاش والجدل، بعد أن يقرر وجود “تباين فلسطيني صحي حول أهداف الانتفاضة”، وما إذا كانت مجرد انتفاضة أم هي صراع مكشوف بين السلطة وحكومة إسرائيل. وبعد أن يقرر أن “ثمار الانتفاضة كثيرة واثمينة”، إلا أن “كطف ثمار بعضها مؤجل”، يعود إلى التساؤل: “هل ضاعت فرصة صنع السلام في المنطقة...؟” ويخلص إلى أن “استئناف المفاوضات مشكلة والاتفاق مع شارون مستحيل.”

ولا يختم ممدوح نوفل كتابه من دون أن يتساءل عما إذا كان زلزال 11 أيلول/سبتمبر سيعجل في حل النزاع أم يؤججه.. لكنه يترك السؤال معلقاً بلا إجابة،

مكتفياً بالإشارة إلى إدانة قيادة منظمة التحرير لذلك "الإرهاب".

شاكراً الجوهري

كاتب وصحافي فلسطيني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>